الأميّون قسماً منها أيضا، فقد عرب بعض أرباب المهن المفردات الخاصة بعملهم وشتان بين منهج كل منها في عمله، فالعلماء يخضعون عملهم للأسس الصوتية الدقيقة في حين أن عمل الأمّي يخضع للانطباع ويحتمل الخطأ وعدم الدقة. كل ذلك يؤدي إلى اختلاف نطقهم للصوت الواحد عند تعريبه.

8 - إن المفردات الأعجمية التي عرّبت لم تكن كلها مأخوذة من اللغة الأعجمية مباشرة وإنما نقل قسم منها عن طريق لغة وسيطة كما حدث عند تعريب قسم من الألفاظ اليونانية فقد أخذت عن طريق اللغة السريانية، ولأدل على ذلك من تشابهها معها أكثر من شبهها باللغة اليونانية(22).

واللغة السريانية لاتختلف عن غيرها من اللغات في ادخال بعض التغيير على أصوات المفردات التي تنقلها إليها، وهذا يعني أن المفردات التي تُعرب عن طريقها قد حدث فيها التغيير مرتين مرة في اللغة الوسيطة وأخرى عند التعريب. ولاشك أن ذلك سوف يؤدي إلى اختلاف نطق الأصوات بين العربية واليونانية.

9 - لعل من أسباب اختلاف الأصوات المعربة عن الأعجمية أن العربي المعرِّب لها قد غيّرها عن قصد منه ووعي - وبخاصة إذا كان المعرِّب عالما - من أجل عدم الوقوع في اللبس اللغوي ودفعا عن الاشتباه بكلمة أخرى عربية. فقد غُيّر صوت كلمة (بادية) الفارسية التي تعني نوعاً من الأوعية إلى كلمة (باطية) لتحاشي اشتباهها مع كلمة (بادية) العربية التي تعني الصحراء(23).

10 - لعل للتصحيف أو التحريف دور في ما يلاحظ من اختلاف بين المعرَّب والأعجمي لأن الخلف قد تسلم أكثر الكلمات المعربة مكتوبة عن السلف وطبيعة النسخ، وتكراره من عدد كبير من النُسّاخ يُولّد عادة التصحيف أو التحريف. ومن الأمثلة على ذلك ما ظنه إبراهيم بن مراد من أن ابن الجزار قد غير حرف الدال في آخر الكلمة إلى لام (24) ولا أظنه على صواب في رأيه بل إن ما وجد من تغيير يعود إلى تحريف النسّاخ لاغير ومما يرجح ما قلناه كثرة وقوع التحريف بين الدال واللام إذا كان الحرفان في آخر الكلمة.

ثانيا : أثر العربية في بناء المعرب:

لم يقتصر التغيير الذي أحدثته العربية في الكلمة الأعجمية على الأصوات وإنما شمل البناء أيضا من أجل أن تتواءم المفردات المعربة مع العربية وتكون مألوفة ومستساغة عند التداول نطقاً وسماعاً.

وقد فطن اللغويون العرب القدماء إلى ما أحدثته العربية من تغيير في بناء اللفظ المعرّب فقد قال سيبويه "إن العرب لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم"(25).

وإن إلحاق اللفظ الأعجمي بالبناء العربي يستلزم أحياناً الحذف من الكلمة أو الزيادة عليها. وهذا ما أشار إليه سيبويه أيضا بقوله "وربما حذفوا كما يحذفون في الإضافة ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لايبلغون به بناءهم "(26).

فالزيادة أو الحذف الذي يجريه العرب على اللفظ الأعجمي لاتجعله مضارعاً للبناء العربي دائماً، فقد تتحقق هذه المضارعة أولاً. ثم إن العرب لم يلتزموا بضرورة تغيير بناء اللفظ المعرب ليكون مناظراً للبناء العربي دائماً بل إنهم "ربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه "(27).

وقد بين الجواليقي التغييرات التي يجريها العربي على

بناء الألفاظ الأعجمية ويكون "بإبدال حرف من حرف أو زيادة حرف أونقصان حرف أو إبدال حركة بحركة أو إسكان متحرك أو تحريك ساكن وربما تركوا الحرف على حاله لم يغيروه "(28).

وعلى ما تقدم نصل إلى أن العرب لم يلتزموا بقاعدة ثابتة تنظم عملية تغيير البناء في الأعجمي عند تعريبه وإنما لهم مواقف مختلفة إزاء المعربات نجملها بما يأتي:

أولا : إذا كان بناء الألفاظ الأعجمية موافقاً لأحد الأبنية العربية فلا يحدثون فيه أي تغيير عند التعريب غالباً لأنه يوافق ما ألفوه من ألفاظ . وإنّ أكثر المعربات على هذا النحو.

ثانيا : إذا كان اللفظ الأعجمي لا يشابه أحد الأوزان العربية فإنهم اتخذوا منه أحد الموقفين الآتيين:

ا - إدخالهم عليه واحد من التغيرات الآتية أو أكثر وألحقوه ببنائهم:

ا - حذف بعض حروف الكلمة من الأعجمية كما في (فيروزج) فقد حذفوا الحرف الأخير منها عند التعريب وأصبحت فيروز (29).ومثل ذلك ماعملوه في(كرد) فأصله(كردن) (30).

ب - إضافة حرف أو أكثر على الكلمة الأعجمية من ذلك كلمة (هليلة) فقد عربت إلى إهليلج (31) بزيادة الهمزة في بدايتها مع تغيير في أحد حروفها.ومثل ذلك زيادتهم الهاء في (قرمان) فقالوا (قهرمان)(32).

وقد أنكر الصغاني أن يكون العرب قد زادوا في حروف الكلمة وعلى ذلك فإنه خطّأ من عرّب كلمة أنموذج (32) وأصر على حذف الهمزة منها لأنها غير موجودة في لغتها الأصلية والعرب لايزيدون في البناء عند التعريب.

وهذا الرأي يخالفه أغلب اللغويون كما تكفي مقارنة سريعة بين الكلمات المعربة والأصل الذي اقترضت منه لمعرفة عدم دقة هذا الرأي. ونأخذ مثالاً على ذلك من الكلمات اليونانية فإن قسماً من كلماتها المبدوءة بساكن تزاد همزة عند تعريبها كما في أسطول وإسفنج وإسكيم وإقليم (34).

ج - حذف حرف أو أكثر من الكلمة من ذلك أنهم عربوا لفظة (غالغا) السريانية التي تعني الفقير إلى (فلج) (35) بعد أن حذفوا منها الألف من وسطها.

د - دمج كمتين في كلمة واحدة من ذلك تعريبهم مركب (سدلي) إلى السدير "وأصله سدلى أو ثلاث قباب بعضها في بعض"(36).ومن ذلك أيضاً كلمة سجيل فإنها معرب سفك وكل (37).

هـ- تغيير في تشكيل حركات اللفظ عن طريق تسكين متحرك أو تحريك ساكن أو تغيير حركة بأخرى كما فعلوا عند تعريب زور وآشوب (38).

وقد يشمل التغيير في البناء أكثر من نقطة مما سبق من ذلك عند تعريبهم كلمة (أرزرز) إلى (الرصاص) فقد حذف منها حرف الألف في أولها وغيرت حركة الراء إلى الفتح بعد أن كانت ساكنة (39). هذا غيرما أبدلوه من أصوات الكلمة الأخرى.

ثالثاً: إدخالهم إحدى التغييرات السابقة الذكر عليه أو أكثر لكنهم لم يلحقوه ببناء العربية من ذلك تغيير الفتحة في كلمة أبريشم - عند تعريبها - إلى كسرة

فصارت إبريسم(40). ومعلوم أن "مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء العربية "(41).

رابعا: استعمال الكلمة المعربة في أكثر من بناء ولعل خير مثال على ذلك استعمالهم الكلمة التي تدل على الطائر المعروف بالشاهين ببناءات مختلفة وهي "السوذانق والسوذنيق والشوذق بالشين المعجمة.قال ووجد بخط الأصمعي شوذانق وقيل شوذنوق - وكلمة الشاهين وهو فارسي معرب - وسوذق أيضاً "(42).

خامسا: إبقاء الكلمة على بنائها الأعجمي من غير تغيير فيه وقد ذكر سيبويه هذا النوع من التعريب بقوله "إن العرب ربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم و لم يغيروه عند بنائه في الفارسية نحو...آجُرّ وجُريز "(43).

وقال عنه الجواليقي أيضا "ومما تركوه على حاله فلم يغيروه خراسان وخرم وكركم"(44).

ويلاحظ على جهود العرب في تعريب البناء أنه لم يكن وفق منهج علمي ثابت أو قاعدة محددة يراعيها المعربون فتباينت جهودهم واختلفت تعريباتهم من حيث الدقة وعدمها. ونحاول أن نجد تعليلا معقولا يفسر لنا ذلك فيما يأتي:

1 - إن تقعيد قواعد علم الصرف بما فيها قواعد البناء والميزان الصرفي قد تم في القرن الثاني الهجري في حين أن عملية تعريب الألفاظ قد بدأت قبل هذا التاريخ بقرنين أو أكثر واستمرت حتى يومنا هذا أي أن كثيراً من المفردات المعربة لم تخضع لقواعد علم الصرف؛ لأنها لم توجد بعد. وبعد ما وجدت واستقر علم الصرف عليها لم يلتزم بعض المعرّبين بها إما لجهلهم بهذه القواعد أو للغفلة عنها أو لأي سبب آخر. وهذا ما يؤدي حتماً إلى عدم اتفاق المعرّبين المختلفين في عملهم. ولعل هذا ما يفسر لنا تعريب بعض المفردات على أكثر من بناء وتعريب الكلمات الأعجمية التي على بناء واحد إلى أبنية مختلفة.

2 - إن الذين عربوا المفردات يختلفون في مستوياتهم العلمية والثقافية واللغوية فمنهم الخواص المتضلعون باللغة ومنهم العوام الذين قد تفشى اللحن على ألسنتهم. وشتان بين عمل كل منهما. فعمل العالم يتسم بالدقة العلمية ويحاول عن قصد أو بدونه جعل ما يعربه من مفردات مشابهاً لبناء الكلمات العربية، لأن طبع الإنسان يميل إلى ما ألف وينفر عما استغرب .ولاشك أن العالم باللغة قد ألف طريقة العرب في البناء فيجعل ما يعربه من ألفاظ أعجمية موائماً لما ألف فتكون الألفاظ المعربة عن طريقه تشابه الأبنية العربية. في حين أن عمل العامي المعرب للألفاظ لايكون كذلك لجهله بطريقة العرب في البناء فما يعربه يخالف قسم منه على الأقل البناء العربي.

3 - لم يقتصر التعريب على شخص أو أشخاص معينين أو لجان علمية كما أن المعرِّبين لم يكن بينهم اتفاق مسبق بأن يراعوا في عملهم البناء العربي حتى عند العلماء منهم فضلاً عن العوام. ولعل خير دليل على ما ذكرناه قول الفراء بأن الاسم الفارسي يبنى "أي بناء كان إذا لم يخرج عن أبنية العرب"(45).

4 - الخطأ في النطق أو السمع قد يؤدي إلى الاختلاف في بناء الكلمة وقد فطن أبوعمر الجرمي إلى ذلك فقال "وإذا حكي لك في الأعجمية خلاف ما العلامة عليه؟ فلا ترينه تخليطاً فإن العرب تخلط فيه وتتكلم به مخلطا لأنه ليس من كلامهم فما اعتنقوه وتكلموا به خلطوا"(46).

والتخليط لايقتصر على الغلط في نقل الأصوات

وإنما يعم الغلط في صوغ البناء أيضا.

ثالثا: أثر العربية في دلالة المعرب:

تتصف دلالات الألفاظ بخاصة قبولها للتطور اللغوي أي أنها لاتبقى دائماً ملازمة للمعنى الذي كانت عليه في بدايات نشأة اللغة إن تهيأت لها عوامل لغوية معينة. ومنها دخول المفردة إلى لغة أجنبية تجعلها منقطعة عن أسرتها اللغوية وهذا ما ييسر عملية حدوث التطور فيها.

والتطور الدلالي يتخذ مظاهر مختلفة فإما أن يكون من الشدة بحيث يؤدي إلى أن تترك المفردة معناها السابق وتنقطع الصلة بينها وبينه وتكتسب معنى جديداً لاتُعرف إلا به غالباً وإما ألا يصل التطور إلى هذه الدرجة فيكون المعنى الجديد له علاقة بالسابق لكنه أخص منه أو أعم.

واللغة العربية قد أثرت في دلالة المفردات المعربة عن طريق تخصيص دلالتها أو تعميمها أو تغيير مجال استعمالها، وكما يأتي:

1 – **تخصيص الدلالة**: يقصد بهذا النوع من التطور ما يلحق بالكلمة من تغيير يُقلص فيه المعنى ويقلل من اتساعه. وقد خصصت اللغة العربية بعض المفردات المعربة من ذلك كلمة (كنده) الفارسية التي تعني المحفور المخدود، والكهف في الصحراء (47) قد تخصص معناها بعد تعريبها إلى "الحفير حول أسوار المدن "(48) من أجل الدفاع عنها.

ومن ذلك أيضاً كلمة الفردوس فهي في اللغة اليونانية تدل على البستان سواء أكان محاطاً بالسور أو الكرم وقد تقلص معناها بعد التعريب إلى الجنة(49)، وبخاصة بعد استعمالها في هذا المعنى بالقرآن الكريم. قال تعالى ؛ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون؛(50).

2 – **تعميم الدلالة**: ويقصد به ما يلحق معنى الكلمة من تطور يوسعه ويزيد في شموله. وقد حدث ذلك في عدد من الألفاظ المعربة، ومنها كلمة الزخرف فقد كانت تدل في اللغة اليونانية على التزيين برسم الحيوانات، وهي مركب لغوي من كلمتين (زو) أي الحيوانات و(جرافيا) أي يكتب أو يرسم ، وبعد أن دخلت إلى العربية صارت تدل على عدة معان(51) منها التزيين بأي شيء أو شكل ولايقتصر على التزيين بالحيوان(52).

ومن الألفاظ التي تعمّم معناها بعد تعريبها (التاجر) فإن معناها في الآرامية بائع الخمر خاصة(53) وتوسع معناها بعد دخولها إلى العربية إلى كل بائع السلع والحاجات خمراً كان أم غيرها(54).

3 – **تغيير مجال الاستعمال** : ويقصد به تطور دلالة الكلمة إلى معنى يختلف تماماً عما كانت عليه. وقد فطن الخفاجي إلى التبدل الذي طرأ على دلالة بعض المفردات بعد التعريب بقوله "وقد يعرب لفظ لم يستعمل في معنى آخر غير ما كان موضوعاً له كحرم اسم نبت يشبه بد الشيب وهو سراج القطرب واستعماله بهذا المعنى مخصوص بالعربية "(55).

ومما تغيرت دلالته بعد تعريبه كلمة "برزخ التي تدل في الفارسية على البكاء والنحيب فتغيرت دلالتها بعد التعريب إلى كل حاجز بين الشيئين وما بين الدنيا والآخرة" (56).

الهوامش

1) الكتاب لسيبويه 303/4.

2) الكتاب لسيبويه 304/4.

3) الكتاب لسيبويه 304/4.

4) الكتاب لسيبويه 305/4.

5) المعرب للجواليقي ص 54.

6) شفاء الغليل للخفاجي ص 25.

7) المعرب للجواليقي ص 54-55 وانظر شفاء الغليل للخفاجي ص 25.

8) انظر المعرب للجواليقي ص 55.

9) المزهر للسيوطي 272/1.

10) المزهر للسيوطي 274/1.

11) غرائب اللغة لرفائيل نخلة ص 25-251.

12) المزهر للسيوطي 274/1.

13) معجم الدخيل في العربية لطه باقر ص 59.

14) المعرب الصوتي عند العلماء المغاربة لإبراهيم بن مراد ص 118.

15) انظر الكتاب لسيبويه 305/4 والمعرب للجواليقي ص 54 وشفاء الغليل للخفاجي ص 25.

16) المعرب للجواليقي ص 54.

17) نظرات في اللغة للدكتور محمد مصطفى رضوان ص 222.

18) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو ص192.

19) انظر المعرب للجواليقي ص 56.

20) المعرب للجواليقي ص 56.

21) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو ص 196.

22) انظر غرائب اللغة العربية لرفائيل نخلة ص 250.

23) انظر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 196.

24) انظر المعرب الصوتي عند العلماء المغاربة ص 119.

25) الكتاب لسيبويه 304/4.

26) المصدر السابق 304/4.

27) المصدر السابق 304/4.

28) المعرب للجواليقي ص 54.

29) انظر المعرب للجواليقي ص 56.

30) انظر في التعريب والمعرب ص 23.

31) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 40.

32) انظر في التعريب والمعرب ص 23.

33) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 40.

34) انظر غرائب اللغة لرفائيل نخلة ص 250.

35) انظر المزهر للسيوطي 287/1.

36) المزهر للسيوطي 280/1.

37) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 31.

38) انظر المعرب للجواليقي ص 56.

39) انظر المزهر للسيوطي 282/1.

40) انظر المعرب للجواليقي ص 56 والمزهر للسيوطي 270/1.

41) المزهر للسيوطي 270/1.

42) المزهر للسيوطي 287/1.

43) الكتاب لسيبويه 304/4.

44) المعرب للجواليقي ص 56 وانظر شفاء الغليل ص 30.

45) المعرب للجواليقي ص 57.

46) المصدر السابق ص 57.

47) انظر تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية لطوبيا العنيسي ص 25 وأثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 347.

48) القاموس المحيط لفيروز آبادي (خندق) 237/3 وانظر الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير ص 57.

49) انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 347.

50) سورة الكهف آية 107.

51) انظر معاني كلمة زخرف في القاموس المحيط (زخرف) 152/3.

52) انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 339.

53) غرائب اللغة العربية لرفائيل نخلة ص 175.

54) انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 243.

55) شفاء الغليل للخفاجي ص 23.

56) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 300.

مصادر البحث ومراجعه

1 - **أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج** للدكتور مسعود بوبو، دمشق سنة 1982م.

2 -**أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث** للدكتور عبد الله عبد الحميد سويد،ط 2 ليبيا،بلا تاريخ.

3 - **الألفاظ الفارسية المعربة** لأدى شير، بيروت سنة 1908.

4 - **تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه** لطوبيا العنيسي، القاهرة سنة 1965م.

5 - **شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل** لشهاب الدين أحمد الخفاجي، نشره محمد عبد المنعم خفاجي، ط1 القاهرة سنة 1952م.

6 - **غرائب اللغة العربية** لرفائيل نخلة اليسوعي، ط 2 بيروت سنة 1959م.

7 - **في التعريب والمعرب** لابن برّي،تحقيق د/إبراهيم السامرائي،ط1 بيروت سنة 1985م.

8 - **القاموس المحيط** لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط 2 سنة 1952م.

9 - قرار مجمع اللغة العربية الأردني المنشور في **مجلة المجمع**، العدد 40 لسنة 1991م.

10 - **الكتاب لسيبويه**، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة سنة 1963م.

11 - **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** لجلال الدين السيوطي، تحقيق لجنة من الأساتذة، القاهرة سنة 1960.

12 - **المصطلحات الفنية** للدكتور صادق الهلال،ي بحث نشر في **مجلة اللسان العربي**، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد 27 لسنة 1986.

13 - **المصطلح العلمي العربي قديماً وحديثاً** للدكتور مناف مهدي محمد، بحث نشر في **مجلة اللسان العربي** ، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد 30 لسنة 1988.

14 - **المعرب الصوتي عند العلماء المغاربة** لإبراهيم بن مراد، تونس سنة 1978.

15 - **معجم الدخيل في اللغة** لطه باقر، بيروت . بلاتاريخ.

16 - **المعرب من الكلام الأعجمي** لأبي منصور الجواليقي،تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة سنة 1969م.

17 - **نظرات في اللغة** للدكتور محمد مصطفى رضوان، ط 1 ليبيا 1976.

الكتابة بين السريانية والعربية

الدكتور/ محمد علي الزركان
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة حلب / سوريا

تمهيد

بدأت محاولات الإنسان منذ أقدم العصور للتعبير عن أعماله وما يجرى في ذهنه بأسلوب يبقى للمستقبل القريب أو البعيد.

ولقد عثر الباحثون في أماكن عديدة من الدنيا، وفي موطن الساميين خاصة على رسوم ونقوش ولوحات،تظهر أطوار الكتابة، ويتبين من هذه الرسوم والإشارات المنحوتة في جدران الكهوف، أن الإنسان بدأ يعبر عما يدور في خلده منذ أزمان بعيدة (1).

وفي الألف الخامس قبل الميلاد تطور هذا الأسلوب في جنوب وادي الرافدين ومصر القديمة، حتى اتخذ أشكالا وصورا ورموزا متتابعة تدل كل منها على كلمة، ويشير مجموعها إلى سلسلة من الحوادث، وسميت هذه الكتابة (الصورية) وفي الألف الثالث قبل الميلاد،راح شعب جنوبي الرافدين في تطوير الكتابة التي أخذت الإشارات والرموز فيها الشكل المثلث الاسفيني المسمى بالخط المسماري والذي تدل كل إشارة فيه على مقطع (2).

وقد ظهر بعد ذلك أسلوب الكتابة المقطعية في نواح عديدة من العالم، فظهر في مصر في مستهل الألف الثالث قبل الميلاد، وفي جزيرة كريت وفي الهند وفي الصين في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد (3).

ولما كان الخط المقطعي صعبا ومعقدا لا حتوائه على نيف وخمسمائة رمز أو مقطع، إضافة إلى الحركات التي تعطي الرمز المقطعي الواحد معاني عدة، كا ن لابد للإنسان أن يتوصل إلى أسلوب كتابي أكثر بساطة وأقل تعقيدا.

وقد ظهرت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد كتابة تدل فيها الصور والرموز على مخارج صوتية تتألف منها المقاطع، وهذه بداية عهد جديد مشرق في علم الكتابة ، جاء نتيجة تطور طويل على مر الأجيال.لذلك يوجز الأستاذ طه باقر أدوار الكتابة بما يلي: (4)

1- دور الإشارات والرموز " الإشارة تدل على عمل ".

2- الدور الصوري والدور الرمزي"الإشارة تدل على كلمة" .

3- الدور الانتقالي إلى الدور الكتابي المختلط المسمى بالخط المسماري "الإشارة تدل على مقطع ".

4- دور الحروف الهجائية ، الدور الصوتي المجرد " الإشارة تدل على حرف".

الكتابة الأبجدية:

ومن أعظم مآثر الإنسانية في العصور القديمة هو ابتكار الحروف الهجائية الأبجدية، ذلك الإناء العجيب الذي استوعب تاريخ البشرية من جميع نواحيه. إن تساؤلات كثيرة قد ترد إلى الذهن... ترى متى تم هذا الإنجاز الفذ؟ من قام به ؟ وأين...؟ أسئلة بذل العلماء والباحثون مجهودات جبارة طوال قرون عديدة للإجابة عنها، إلاّ أن الحقيقة لما تنجل بعد، وما يزال العلماء تبعا للاكتشافات الجديدة، ينقضون نظرية ويبنون أخرى... كالنظرية المصرية وكنظرية ما بين النهرين، ونظرية طور سيناء وغيرها(5).

تفرع الأبجدية السامية:

مثلما انقسم الشعب السامي فيما قبل التاريخ إلى أقوام وقبائل كثيرة، وتشعبت لغته السامية الأم إلى لغات عديدة. كذلك تفرعت الأبجدية السامية الشمالية الأولى التي ابتكرها الساميون في سورية وكنعان إلى أربعة أقلام قديمة رئيسة:

1- **القلم السامي الجنوبي:** انتشر في حينه في جنوب شبه الجزيرة العربية وعبر البحر الأحمر إلى الحبشة، وانتشر بعد ذلك بين قبائل الجزيرة العربية، وتولدت منه الأقلام اللحيانية والثمودية والصفوية (نسبة إلى الصفا قرب حوران) في حين لم تقم له قائمة إلاّ في القلم الحبشي.

2- **القلم الفينيقي القديم:** تولد منه القلم الفينيقي المتأخر، وانتقل مع بعض التغيير إلى المستعمرات الفينيقية في شمال إفريقيا على سواحل البحر الأبيض المتوسط، كقلم قرطاجنة وقلم ليبيا القديم، كما تولد منه أيضا القلم الإيبيري (الإسباني القديم)، وقد انقرضت جميعها، ويرى العديد من الباحثين أن الأبجدية اليونانية (أم الأقلام الغربية كافة) اقتبست من الفينيقية.

3- **القلم العبري القديم:** تولد منه الأقلام التالية: الموآبي والآدومي والعموني والسامري، ولم يبق منها إلاّ الأخير على نطاق ضيق جدا.

4- **القلم الآرامي:** وقد تولدت منه أبجديات كثيرة.(6)

وهكذا يتضح للقارئ بعد هذه المقدمة السريعة أن الأقوام القديمة بناة حضارة ما بين النهرين ومصر وجزر بحر إيجه وآسيا الصغرى ووادي الهندوس والصين قد توصلوا إلى أسلوب متطور في تاريخ الكتابة، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من بلوغ الطور الأخير- أعني الطور الأبجدي- وهو ما توصل إليه الشعب السامي في بلاد الشام والعراق، وتلك واحدة من أعظم مآثر الساميين التي أورثوها للبشرية وسنتابع في الصفحات القادمة الفصول المتعلقة بالكتابة في السريانية والعربية وبما أن السريانية وارثة الآرامية، فقد مهدت لها بفصل لينير الطريق أمامنا في بحث الكتابة السريانية والعربية.(7) (ينظر الأشكال 1-2-3-4).

-الكتابة الآرامية:

سأتناول في هذا الجزء الكتابة الآرامية بشكل سريع لأنها تعدّ الأمّ التي غذّت بلبانها القلمين السّرياني والعربي. ولا غرابة في ذلك فقد اقتبس الآراميون كتابتهم من الأبجدية السامية الشمالية مباشرة، ولما غزت لغتهم ما بين النهرين في القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد، دخلت معها كتابتهم الأبجدية السهلة

البسيطة.فلقد تهيأ للآرامية من الأسباب ما جعلها تنتشر في الشرق من أقصاه إلى أقصاه، لسهولة أبجديتها وبساطة اشتقاقها وقواعد نحوها.

ونظرا لكون القبائل الآرامية متاخمة، وأحيانا متداخلة مع الإمبراطورية الآشورية دون بقية الأقوام ذات الكتابة الأبجدية كالفينيقيين والعبريين والعرب الجنوبيين لذلك انتشر الخط مع توسع الإمبراطورية الآشورية التي شجعته ثم زاد ازدهارا في عهد الإمبراطورية البابلية الكلدانية وارثة الآشورية. فأزاحت الكتابة الآرامية الخطوط المسمارية بمختلف أنواعها، والخطوط الأبجدية السامية الشمالية كالعبري والفينيقي بفروعهما، وتعدت إلى اللغات غير السامية (8).

وآخر خط أزاحته هوالخط العربي الجنوبي(المسند)، وذلك حينما اختفت الخطوط اللحيانية والثمودية والصفوية في شمال الجزيرة العربية، ثم في جنوبها أمام الخط العربي المنحدر من الكتابة النبطية الآرامية.

ويلاحظ أنه لم يعثر على آثار للخط الآرامي بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد إذ أنه العهد الذي تكونت فيه كتابات آرامية محلية كالعبرية المربعة والنبطية والتدمرية والحضرية والسريانية، فليس من السهل الكشف عن مدى تأثير الكتابة الآرامية في الطور الأول على بناتها كتابات الطور الثاني.(9)

يقول صاحب اللمعة الشهية(10): "أما القلم الأول الذي اخترعه الآراميون فلا يعلم بتحقيق كيف كانت صور حروفه فردا فردا. ولكن ذهب بعض العلماء في عصرنا إلى أن هذا القلم هو القلم المسماري الذي يرى في الكتابات المرسومة على الأحجار الكثيرة التي كانت مطمورة تحت الأرض في نينوى بقرب الموصل وأماكن أخرى. غير أن هذا القلم القديم تغير شيئا فشيئا في تتابع الأزمان حتى ذهب عنه الشكل المسماري وتولد منه قلم جديد مخطط الحروف، متشابهة حروفه بحروف القلم المسماري. وهذا القلم البكر منذ الأزمان القديمة تولّد منه أقلام كثيرة مشابهة بعضها لبعض مع اختلاف أزمانها وأماكنها. أما ما هو معروف اليوم من هذه الأقلام المتولدة من القلم الأصلي، **فأولا**: القلم السامري الذي كان اليهود يستعملونه قبل جلائهم إلى بابل، وإلى الآن يستعمله السمرة القليل عددهم. **ومنها** القلم الفوني أو الفونيقي، أي المكتوب على الأحجار القديمة التي وجدت وتوجد إلى اليوم في الجانب الغربي من بلاد الشام. **والقلم** التدمري المنقوش في آثار مدينة تدمر المشهورة وما يجاورها. **والقلم** الذي يسميه علماؤنا بالنبطي وهو الذي كان يستعمله جيل من السريان في بلاد الشام وبلاد العرب يقال لهم النبط. ومن هذا القلم نتج القلم الحميري العربي الذي منه تولد القلم الكوفي ومن هذا نشأ القلم العربي المعروف اليوم الذي يقال له النسخي.(11)

وأقدم قلم آرامي اتصل بنا عهده في الكتب المسطورة هو القلم البابلي المستعمل في زمان كورش ملك فارس. وهو الذي تعلمه اليهود في جلائهم إلى بابل وبعد رجوعهم إلى أرضهم في القرن السادس قبل المسيح، لم يزالوا يستعملونه إلى يومنا هذا ، ويسمونه القلم الآشوري، والسامريون يسمونه اليهودي، ويسميه علماء الفرنج القلم المربع لأن حروفه أكثرها مربع تقريبا. وحروف هذا القلم تشبه كثيرا الحروف اليونانية فنرى أن

أقدم قلم آرامي حفظ لنا إلى يومنا هذا، و يستعمله الآراميون ولا يعرفونه، بل تستعمله أمة غريبة أي اليهود، وهم يحترمون هذا القلم الآرامي ويعظمونه غاية التعظيم، حتى إنهم يتخذون كل ما يكتب به شيئا مقدسا..(12).

ولا أدري هنا كيف جعل الكاتب الأنباط جيلا من السريان، وكأن هؤلاء أصل وأولئك فرع، وهذا غير صحيح... ثم نجده يعترف هنا بأن القلم العربي الكوفي متولد من القلم العربي الحميري، في حين نجده في مكان آخر من كتابه ينسب القلم الكوفي إلى القلم السطرنجيلي السرياني.

تفرع الكتابة الآرامية:

دام العهد الذهبي للآرامية في ظل حكم الكلدانيين ثلاثة قرون، وأشهر ما وصل منها حكمة آحيقار المكتشفة في جزيرة (فيلة) في الصعيد المصري (13) والتي يرتقي عهد كتابتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

إلاّ أن الإسكندر الكبير لدى استيلائه على الشرق بعد أن قوض حكم الفرس الأخمينيين، فرض على الدولة الجديدة اللغة اليونانية، لغة رسمية عوضا عن الآرامية ففقدت الأخيرة عوامل وحدتها وتفرعت إلى لهجات أهمها: لهجة فلسطين اليهودية سليلة آرامية بابل الكلدانية، واللهجات النبطية والتدمرية والحضرية والرهاوية. كما بقيت في جنوبي ما بين النهرين لهجة أخرى هي المنداعية، وكان عامل الدين سبب بقاء اللهجتين الفلسطينية والمنداعية (أي لهجة الصائبة)(14).

وعلى أثر تقسيم دولة الإسكندر المكدوني الغازي بعد موته بين قواده، ووهن هذه الدول تحت ضربات الجيوش الرومانية الزاحفة نحو الشرق، قامت بعد مدة دويلات أبقت على لغتها الآرامية، منها دولة النبط ودولة تدمر ودولة الحضر ودولة الرها وما حدث للغة الآرامية حدث أيضا لكتابتها إذ تطورت منذ آثارها الكتابية الأولى في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، نحو التدوير مع شيء من التربيع، فبينما كانت تكثر فيها الزوايا في أدوارها الأولى، أصبحت شبه مدورة في أدوارها الأخيرة... فنشأت نماذج جديدة للخط الآرامي في مختلف نواحي الشرق، ومالت بعض تلك الخطوط إلى التربيع كالخط العبري والخط التدمري والخط السرياني السطر نجيلي. أما الخطان النبطي والحضري ففيهما التربيع والتدوير، وأما المنداعي فهو أكثر تدويرا.(15)

الكتابة السريانية:

أ- متى وأين نشأت:

يقول بعض الباحثين أن آرامية الرّها المعروفة بالسريانية هي الوارث الوحيد للغة الآرامية والتي لا زالت تعيش حتى الآن، بصرف النظر عن بعض اللهجات الآرامية الأخرى كلهجة أهل معلولا مثلا. فيكون الخط السرياني هو الوريث المباشر للخط الآرامي، وقد رأينا في المقدمة وفي بحث اللغة الآرامية كيف تفرعت هذه إلى لهجات عدة، مع ملاحظة اختلاف الباحثين في سرد هذه التفريعات اللهجية، ونسبة كل واحدة منها إلى الأخرى.

لقد اكتشف العديد من آثار الخط السرياني في طوره الأول، وأكثرها في منطقة أعالي نهري دجلة والفرات، وقسم منها في سورية وفلسطين، وسنتدرج من الأوضح إلى الأقل وضوحا ثم إلى المشكوك فيه.

أقدم كتاب مخطوط حفظ حتى الآن باللغة السريانية يرقى إلى مستهل القرن الخامس للميلاد وهو مخطوطة